أسامة مهملي- جامعة سيدي بلعباس - الجزائر

آليات المستشرقين لهدم اللغة العربية الفصحى

ملخص

أدى الاستشراق دورا فعالا في إضعاف الفصحى وتهميشها حيث تحرك كثير من المستشرقين صوب اللغة العربية الفصحى، فوجهوا إليها سهامهم المسمومة إذ نادوا تارة بتهذيبها من أدران الماضي وتارة نادوا بالإصلاح الكتابي عن طريق تغيير الحروف العربية بالأجنبية، كما نادوا بضرورة عملية التغيير والتجديد في شكل القواعد ومضمونه، وأسرف بعضهم ونادى بإحلال العامية بدل الفصحى، ومن أولئك المستشرقين الذين رموا إلى ذلك:

المستشرق الألماني ولهم سبيتا في كتابه قواعد اللغة العربية العامية في مصر وقد أصدره عام 1880م،والكتاب كله سموم يرمي إلى التخلي عن الفصحى، وأما المستشرق الانجليزي وليام ولكوكس فقد أرسى من خلال محاضراته مجموعة من التقارير تدعوا العرب والمسلمين إلى إقصاء الفصحى عن ميدان الكتابة والأدب.

ولقد وضع المستشرق دوفرين تقريرا عام 1882م،دعا فيه إلى إحلال العامية لتحل محل الفصحى في التربية والتعليم والثقافة،

ولم يكتف أولئك المستشرقون ببث هاته السموم فقط، بل راحوا يزعمون إلى وجود صعوبة في تعلم اللغة العربية الفصحى موجهين أصابع الاتهام إلى أن الصعوبة تكمن في النحو العربي.

الكلمات المفتاحية

الاستشراق، اللغة العربية الفصحى، المستشرقون، العامية، صعوبة النحو العربي.

Résumé

L'orientalisme a joué un rôle important dans l'affaiblissement et la marginalisation de la langue arabe standard (ou classique) [Al-lugha al-fuṣḥâ]، là où plusieurs orientalistes sont dirigés vers la Fuṣ'ḥâ en y pointant des « flèches empoisonnées ». Tantôt ils ont proclamé la raffiner des souillures du passé، tantôt ils appelaient à faire des réformes

à l'écrit en remplaçant les lettres arabes par des lettres étrangères (latines)، ainsi، une procédure nécessaire pour le changement et le renouvèlement de la grammaire et son contenu. Et d'autres، sont allés plus loin en recommandant le remplacement de la langue standard par le dialecte، parmi eux :

*L'orientaliste allemand : **Wilhelm Spitta** dans son livre intitulé « La grammaire de la langue arabe dialectale en Égypte»(1) paru en 1880، le livre est plein de mauvaises intentions qui visent à abandonner la **Fuṣ'ḥâ**. Tandis que l'orientaliste anglais William Willcocks، qui a ancré à travers ses conférences un ensemble des rapports qui invitent les Arabes et les Musulmans à éliminer la Fuṣ'ḥâ du domaine de l'écriture et de la littérature.*

*En **1882**، l'orientaliste **Lord Dufferin** (**Frederick Hamilton-Temple-Blackwood**) a publié un rapport dans lequel il appelait à instaurer le dialecte (**al-'âmmiyya oual-dârija**)à la place de la **Fuṣ'ḥâ** dans l'éducation، l'enseignement et la culture.*

*Ces orientalistes ne se sont pas contentés d'injecter leurs idées destructives، mais ils prétendaient que la langue arabe classique (**Al-Fuṣ'ḥâ**) est difficile à apprendre en pointant du doigt vers sa grammaire. [Grammatik des arabischen vulgär dialectes von Aegypten] (1)*

Mots clés
Orientalisme-Les orientalistes - La langue arabe classique (Fuṣ'ḥâ) -La langue dialectale – Difficulté.

مقدمة

تمثل اللغة في الأمة الناطقة بها الصورة التعبيرية الثابتة لثرواتها الدينية والفكرية والحضارية، فهي تعبر عن مشاعر الأمة وآدابها ومنتجاتها، والواقع أن معرفة الحقائق الدينية، سواءا كانت تشريعا عمليا أو أخلاقيا أو آدابا، أو حتى أفكارا ومبادئ عقلية أو حتى وجدانية وغيرها، لابد أن يملي عليها ألوانا أخرى من المفردات والصيغ التعبيرية الدينية التي تستوعب المعاني والمفرادت، وتدل عليها الدلالات الصحيحة.

هذه الصيغ التعبيرية المؤلفة من حروف الهجاء، والمفردات والجمل والقواعد والأساليب البيانية، هي التي تتكون منها لغة الأمة التي تنطق بها، وتعطي صورة حالية عنها، وصورة ثابتة عن تاريخها، فاللغة هي الجزء المشترك من كيان الأمة وهي الوطن المعنوي الواحد لحركة اللسان المعبر عن حركة الفكر والنفس والوجدان.

وبما أن اللغة العربية هي لغة القرآن وهو مهيمن على ما سواه من الكتب الأخرى، فهذا يقتضي أن تكون مهيمنة على ما سواها من اللغات الأخرى، فهي لغة خاتم الأنبياء والمرسلين أرسله الله للبشرية جمعاء، واختار له اللغة العربية وهذا يعني صلاحيتها لأن تكون لغة البشرية كلها.فلما وصفها الله بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنها، وهذا تاج كلّل الله به مفرق العربية خصوصا حين ناط الله به كلامه المنزل.

ويبدو أن جيوش أعداء الإسلام من المستشرقين والمبشرين والمفتونين بزيف الحضارة الغربية المسلحين بالأسلحة الحديثة المفتونة بدهاء ومكر شديدين قد أدركوا جميعا وبكل تأكيد أن الشعوب الإسلامية ما دامت على صلة وثيقة باللغة العربية، فإنها ستظل مرتبطة بالإسلام الحنيف الدين الحق وبالقرآن كلام الله جلا وعلا، وستظل متمسكة بفكرة الوحدة الإسلامية الكبرى، فهدم اللغة العربية الفصحى ليس إلا هدما للإسلام في لغته التي تعبد بها المسلمون والتي ألّف الله عليها قلوبهم أجمعين فالكتاب المعجز، الذي أوحاه الله جلا وعلا عن طريق رسول الوحي جبريل عليه السلام على خير ولد آدم عليه السلام محمد- ص- نزل بلسان عربي مبين فلولاه لدرست اللغة العربية الفصحى، وانقرضت كغيرها من معظم لغات العالم، ولا يحتاج القارئ إلى ذكاء أو دهاء لكي يدرك أن اللغة العربية الفصحى هي الهدف الأول التي يصوب نحوها من طرف الغربيين وأنها هي شغلهم الشاغل التي تحاك الخطط وتدبر المكائد حولها لحصرها وتشتيتها بين أحضان أبنائها وطردها من الحياة كلها(01).

إن التطرق لموضوع آليات المستشرقين لهدم اللغة العربية من المواضيع الهامة التي يجب على الباحث الغوص فيه قدر الإمكان نظرا للتراجع الذي شهدته اللغة العربية الفصحى في مجالات عديدة وعلى الخصوص المجالات التعليمية، فكان من

أسباب اختياري لهذا الموضوع الرغبة في الإجابة عن المشكلات الآتية:ماهي الوسائل التي اعتمدها المستشرقون لإضعاف اللغة العربية الفصحى ؟ وما هي أهدافهم من ذلك؟ ومن هم أبرز المستشرقين الذين دعوا إلى هجر الفصحى؟

وأخيرا هل استطاعت دراساتهم وأبحاثهم أن تؤثر على اللغة العربية الفصحى أم كانت مجرد دراسات ومحاولات لا جدوى منها؟

موضوع البحث

1. الدعوة إلى العامية وإضعاف الفصحى

لقد ادعت بعض الدراسات الاستشراقية أن حضارة البلاد العربية آشورية وفرعونية وفينيقية وزعم بعض المستشرقين أن اللغة العربية الفصحى ليست لغة علم وفن لأنها لغة طلاسم وأساطير مرّت عليها حقب الدّهر الطويلة وقضى عليها الزمن وجعلها أمثولة للذكريات والأقاصيص الطويلة النادرة (02).

ومن أساليب الحرب الفكرية الخفية التي قام بها المستشرقون العمل على إضعاف الفصحى ونشر العامية إذ راحوا يشجعون على التحدث بها في جميع المجالات الرسمية وفي المساجلات الأدبية (03) ومن المستشرقين الذين نادوا بذلك:

- المستشرق الألماني "ولهم سبيتا" الذي كان مديرا لدار الكتب المصرية عهد الاحتلال الانجليزي في مصر الاسلامية إذ قام هذا المستشرق بوضع كتاب عام (1297ه- 1880م) سماه "قواعد اللغة العربية العامية في مصر".

والكتاب كله سموم، فقد أورد في مقدمته نبذة عن فتح العرب لمصر عام (19هـ/639م) ونشر العربية فيها والقضاء على القبطية محاولا بذلك إثارة النعرة العرقية والعنصرية لمصر ضد اللغة العربية.

و اختتم المقدمة بشرح فكرته المدسوسة وهي اتخاذ العامية المصرية لغة أدبية، مؤيدا فكرته بأدلة باطلة، تارة بالنيل من العربية الفصحى وصعوبة قواعدها وطريقة كتابتها وأخرى بإعلاء شأن العامية، وبذله الجهد الكبير لاستنباط قواعد لتنظيميها لتصلح للاستعمال الكتابي وحاول أن يقدم المبررات التحذيرية التي ظن أنه قد يرضي الشعور الاسلامي بقوله "إن لغة الصلاة والطقوس الدينية الأخرى ستظل كما هي في كل مكان" (04) وهو بذلك يحاول ذر الرماد في العيون.

والحقيقة التي يعلمها هذا المستشرق العفن "سبيتا" هي بخلاف ذلك فهو واثق أن العامية إذا انتشرت انتشارا واسعا وأبعدت لغة القرآن الكريم عن الاستعمال، لأمست لغة القرآن الكريم بعد قرون لغة مجهولة داخل الشعوب العربية والاسلامية قاطبة ولأصبحت العربية الفصحى شبيهة باللغات اليونانية أو اللاتينية أو السريانية غير المفهومة لأن اللغة العربية الفصحى هي اللغة المشتركة الجامعة التي تتفاهم بها الشعوب العربية.

- المستشرق دوفرين: لقد وضع هذا المستشرق تقريرا عام (1302هـ /1882م) ودعا فيه إلى هجر العربية الفصحى وإحلال العامية المصرية مكانها في بناء منهج التربية والتعليم والثقافة وغيرها.

- المستشرق الانجليزي الخطير " وليام ولكوكس": كان له نشاط كبير وتحمس غريب في بث الدعوة بين العرب والمسلمين وقد دعا هو أيضا إلى إقصاء اللغة العربية الفصحى عن ميدان الكتابة والأدب وإحلال العامية الشائعة محلها ففي خطبة ألقاها عام (1313هـ - 1793م) بعنوان "لمَ لمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن "قد زعم فيها أن الذي سبب انحطاط المصريين وعاقهم عن الاختراع والابتكار هو تقيّد الناس في الكتابة و التأليف بالعربية الفصحى(05).

ولّما كانت محاضرته تمثل أهمية خاصة في تاريخ حركة الانقضاض على اللغة العربية فقد كان من الضروري الإشارة إلى ما جاء بها مما يحدد هدفه و أسلوبه الماكر في الترغيب بالعامية.

ولم يكتف "ولكوكس" بنشر سمومه بالمحاضرات بل نشر رسالة بعنوان: (سوريا، مصر، وشمال إفريقيا ومالطة تتكلم البونية لا العربية). والرسالة تزعم بأن اللغات العامية التي ينطق بها هؤلاء هي اللغة الكنعانية أو الفينيقية أو اليونانية السابقة للفتح الإسلامي ولا صلة لها بالعربية الفصحى وهدفه من ذلك هو إثارة العصبيات القومية لهذه اللغات العامية ضد العربية الفصحى، لتشجع سكان المناطق على اتخاذ لغاتهم العامية في كتابتهم العلمية والحقوقية والأدبية وبمرور الزمن تزداد الفروق اللغوية بينهم وبين الفصحى فتنقطع صلتهم بها وبذلك تنقطع صلتهم بمصادر الدين الإسلامي وقد بلغ العداء بهذا المستشرق الحاقد مبلغه، فجعل يستشرق بالقول

أن العربية الفصحى هي لغة جوفاء لا تحمل أي معنى بل هي ألفاظ رنانة فقط.

- المستشرق الألمانيكارل فولرز: تابع الدعوة الهدامة التي قام بها ولكوكس حيث كان مديرا لدار الكتب المصرية خلفا لولهم سبيتا فوضع كتابا سماه "اللهجة العامية الحديثة في مصر".

وجه فيه المصريين إلى استعمال الحروف اللاتينية لدى كتابة العامية وأخذ يدّعي في كتابه المسموم كاذبا بجمود العربية الفصحى ويشبهها باللاتينية، وشبه العلاقة بينها وبين اللهجة العامية في مصر بالعلاقة التي بين اللاتينية والايطالية.

- المستشرق الانجليزي سلدن ولمور: اتجه اتجاه سبيتا فحاول دراسة العامية ووضع قواعد لها واقترح كتابتها بحروف لاتينية واتخاذها لغة العلم و الأدب و غايته من وراء ذلك تحقيق أهداف المستشرقين(06).

- المستشرق لويس ماسينيون: ظهر المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون الذي كان من زعماء الحركة الرامية إلى الكتابة بالعامية هذا المستشرق العفن قد حاول أن يبث دعوته هذه في مصر و المغرب وسوريا ولبنان خاصة، ولكن أعجب ما ظهر من ذلك ومما لا يخطر على البال هو أن الدعوة استطاعت أن تتسلل متلصصة إلى الحصن الذي قام لحماية اللغة العربية الفصيحة و المسمى بمجمع اللغة العربية(07).

وقد ظهرت في مجلته الناطقة باسمه سلسلة من المقالات عن "اللهجة العربية العامية" كتبها عضو من أعضاء هذا المجمع واسمه "عيسى اسكندر المعلوف "وإن مما يدعو إلى العجب حقا أن يختار المجمع لعضويته رجلا معروفا بعدائه الصريح للعربية، وهو عداء عريق ورثه عن أبيه الذي أعلنه وجهر به حين سجلّه في مقال له نشرته "الهلال" سنة 1902م. دافع فيها عن اللهجات السّوقية وقال أنه يشتغل لضبط أحوالها وتقييم شواردها لاستخدامها في كتابة العلوم. و قد أكّد هذا المقال أن اختلاف اللغة العامية عن لغة الكتابة هو من أهم أسباب تخلفنا الثقافي، وزعم أنّه من الممكن اتخاذ أي لهجة عامية لغة للكتابة كالمصرية أو الشامية وأنها ستكون أسهل على سائد المتكلمين بالعربية - على اختلاف لهجاتهم- من العربية الفصيحة وختم المقال بقوله: وما أحرى أهل بلادنا أن ينشطوا من عقالهم طالبين التّحرر من رق لغة صعبة المراس قد استنزفت أوقاتهم وقوى عقولهم الثمينة وهي مع ذلك لا تولّهم

نفعا، بل أصبحت ثقلا يؤخرهم عن الجري في مضمار التمرن، وحاجزا يصدهم عن النجاح... ولي أمل بأن أرى الجرائد المكتوبة بالعربية وقد غيرت لغتها... وهذا أعده أعظم خطوة نحو النجاح وهو غاية أملي ومنتهى رجائي (08).

2. دعوى استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني

كان ممّا دعا إليه المستشرقون إلى جانب دعوتهم إلى استخدام العامية استخدام الحرف اللاتيني بدلا من الحرف العربي، ودلّلوا على رأيهم بنجاح تركيا في ذلك، والحقيقة أن تركيا لم تنجح في ذلك وإنما نجح الاستعمار في القضاء على العربية لغة المسلمين في تركيا و نجح مصطفى كمال في جعل روح الأوروبيين وعاداتهم تسري في الأتراك وهذا ما طمع فيه أعداء الاسلام،بأن يغزو المدينة أفكار المسلمين،وها هو "بروكلمان" المستشرق الألماني يعبّر عن فرحته عن اختفاء اللغة العربية من أصوات المؤذنين بالصلوات حيث يأمرهم الطاغية أتاتورك أن يرطنوا بالتركية و يسمي بروكلمان هذا الفعل حرية (من ذلك الحين صار المؤذنون أيضا يؤذنون للصلاة باللّغة التركية، ليس هذا فحسب بل إن الحرية الدينية أدّت إلى اعتناق عدد من الأتراك النصرانية سنة 1923م، وهو عمل كان القانون الاسلامي القديم يعاقب عليه بالقتل). هذه الحرية إذن في مفهوم بروكلمان أن يترك الأتراك المسلمون لغة قرآنهم واسلامهم ليسهل على المسلمين تنصيرهم وتغريبهم لغة وحضارة وتراثا وفكرا ولا ندري لماذا أبقى بروكلمان نفسه يكتب بالعربية ويخرج المخطوطات وكتب الأدب والتراث؟ ولماذا يهتم بتاريخ وأدب العرب؟ لعلّه يريد أن يخادعنا فيجعل من نفسه قيّما على تراث العرب في الوقت الذي يصدح فيه لإلغاء العربية في تركيا وتنصير أهلها ولعل هذا بالذّات ما أكسبه رضا الكنيسة عنه والدعاية الكبيرة التي سارت له في البلاد في حين زميله رايسكه لم يمنح حتّى كرسي في جامعة ولا في مدرسة أو ثانوية.

وقد ذهب علماء الغرب الأوروبيون إلى أن الحروف العربية نشأت من أصل واحد هو الكتابة الفينيقية القديمة وأنّ اليونانيون أخذوا حروف الكتابة عن قدماء الفينيقيين ثم أدخلوها أوروبا بعد أن أحدثوا فيها تغييرين الأول: صارت كتابتها من الشمال إلى اليمين و الثاني: زيادة الحركات على الحروف و جعلها حروفا مستقلة

بذاتها.

أما الكتابة العربية فقد احتفظت لذاتها بالخصائص الشرقية فكتابتها من اليمين إلى اليسار والحركات فيها لا تعتبر فيها حروف منفردة بذاتها وعلى مذهب الأوروبيون إذا تكون حروفهم صنوا مشوها للحروف العربية.

وقد زعم المستشرقون وجود صعوبة تعلم اللغة العربية وزيّن لهم غرورهم الخروج على قوانينها وضغطوا بجهودهم لاستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني، ونشر العاميات ليخففوا العناء الذي يلقاه جند تعليم التبشير والاستعمار في تعلّم العربية.

وقد تولدت جريدة "لاسيري" الفرنسية في بيروت عام 1922م أوّل الاحتلال الفرنسي تولت الدعوة إلى الحرف اللاتيني وضربت أمثلة من شعوب أعجمية حاولت هذه المحاولة في أذربيجان وأنقرة، ونسبت تلك الجريدة أن التركية والأذربيجانية والأرمينية ليست إلا فروى من أسرة اللغات الهندية الأوروبية فهي بعيدة عن السامية.

كما أن الحروف اللاتينية غير ثابتة اللّفظ، فالشعوب التي تفرعت لغاتها عنها كالفرنسيين والانجليز والإسبان والإيطاليين والبرتغاليين، كلّ شعب يلفظ الحروف بصورة مختلفة عن الآخر أما نحن فتأتينا رسالة من مراكش أو الهند فنقرأها كما كتبها صاحبها، بل نحن مازلنا نقرأ شعرا من شعر الجاهلية منذ 1500سنة، فنلفظ كلماته كما لفظها قائلها أما العامية فلا يضبط لفظ كلماتها لا اللاّتينية ولا سواها.

زد على ذلك أنّ حروف اللغات اللاتينية مفكّكة بعضها عن بعض كأنها مسمارية بينما الكلمات العربية يلتصق أكثر حروفها وهذا الالتصاق يجعلها كتلة واحدة وكأنها كتابة اختزال ولأجل هذه الميزة الاقتصادية فإنّ العربية تحتاج إلى ورق أقل عند الكتابة من اللغات الأوربية ثم إن اللغة بألفاظها وكتابتها تحفظ معانيها وقومية المتكلمين بها فهل يجوز أن تترك الكنوز المحررة بها لترضي بعض المستشرقين؟ وهل يقبل هؤلاء أن نعرض عليهم ترك حروفهم واتّخاذ حروفنا لتضبط ألفاظهم بها ؟

ومن الغريب أن يردّ على فرية صعوبة اللغة العربية المستشرق الفنلندي "يوحنا

كرسكو"في مقالة أرسلها إلى مجلة المجمع العلمي العربي عام 1924م.نفى فيها أوهام الأوربيين في صعوبة تعلّم العربية فقال: وأما تعلّم الحروف العربية وكتابتها فأسهل من تعلّم الحروف الأوروبية وكتابتها وعرض المستشرق إلى مقابلة أجراها مرجليوث بين اللغة العربية والانجليزية فقال: وليس لنا من وسيلة البتة غير هذه الأوهام الأوروبية أو بالأحرى الانجليزية إلى فهم كلام مرجليوث في صيف1911م.فإنه قرأ حينئذ بيانا عن اللغة التي يجب أن تكون شائعة لتفاهم شعوب العالم كله،وانتهى إلى وجوب اتّخاذ الانجليزية واسطة لإدراك هذه الغاية فقال: إنه لو تساوى عدد المتكلمين باللغة العربية وعدد المتكلمين باللغة الانجليزية لوجب تفضيل الانجليزية على العربية لأن فيها استعمال الحركات والحروف الكبيرة abc ...ABC ... وهي مزية تجعل الصحيفة الانجليزية أوضح و أبين.

ويعقب عليه المستشرق الفنلندي فيقول:نعم نعم أيّها الأستاذ، إن صحيفتك الانجليزية أوضح وأبين لجيل الانجليز والأوروبيين أيضا وأما للعرب والفرس والترك فالصحيفة العربية أظهر وأجلى وإن أبيت إلاّ المكابرة فعليك برجل صيني لا ضلع له مع أحد منا و هو يفتيك في حقيقة الأمر فتعرف حينئذ أيّ الصحيفتين أوضح وأجلى(09).

3. دعوى صعوبة النّحو والتّشكيك في أصالته

لقد حرص أعداء لغة القرآن من مستعمرين ومستشرقين وغيرهم على بث دعايات واسعة ضدها وقاموا بصدها في أذهان كثير من شباب الأمّة كي يكونوا معاول هدم تنفر في كيانها الشامخ فصوروا لهم أنّ العربية صعبة وأن قواعد النحو عسيرة الفهم ونادوا باسم التسهيل والرّفق على الطّلاب والدّارسين (10)عن طريق:

- إلغاء صورة الإعراب في الكلام العربي، واللّجوء إلى تسكين أواخر الكلمات هذا الحديث وإن كان ظاهر التّسهيل على المتحدث بالعربية فإنّه يثبّت هدم الأركان والأسس التي بنيت عليها هذه اللغة المجيدة،مما ينتج عنه جهل بمعاني القرآن الكريم، فإذا ما ألغي الإعراب تلاشت أحكامه واندثرت و فقدت للغة أصولها التي بها يستقيم الكلام(11).
- يذهب بعض المستشرقين إلى ردّ النحو العربي إلى أصول يونانية أو سريانية

أو هندية أو لاتينية فمن الذين قالوا بالتّأثير اليوناني على النّحو العربي المستشرق الفرنسي "ارنست رينان ERNEST RENANN" والمستشرق الهولندي "فيرستيج C.VERSTEEG "والألماني هوفمان (12).

ويذهب المستشرق رايف طلمون وزميله اليهودي ريفيل إلى أنّ النّحو العربي في صورته التي وصلت إلينا من خلال كتاب سبويه قد تأثّر بالآداب الأجنبية مع بداية القرن السّابع ميلادي أو القرن السادس وهما يفسحان المجال في كلامهما إلى تأثير عبري إلى جانب التأثير السّرياني، ويذكر المستشرق طلمون ويقدّر ريفيل أن التنقيط بالإعجام أدخل على أيدي من استعمل الكتابة بالعربية في العراق وسوريا من يهود وسريان(13).

وقد اعتمد هذا الفريق المنادي بالتأثير الأجنبي على النحو العربي على فرضيات لا دليل عليها منها خلق علاقة تاريخية بين النحاة العرب و النحاة السريان مثل علاقة مفترضة بين أبو الأسود الدّؤلي ويعقوب الدّهاوي و افتراض علاقة بين حنين بن اسحاق والخليل بن أحمد الفراهيدي كما افترضوا دور الفرس في نقل المعرفة اليونانية إلى العرب مثل افتراض معرفة عبد الله بن المقفع باليونانية وتأثيره في الخليل بن أحمد الفراهيدي ومن هذه الفرضيات زعموا أنّ مصطلحات الإعراب والصرف والقياس والحركة مصطلحات يونانية وأنّ تقسيم الكلام عند سبوية تقسيم يوناني.

وفي كل هذا يتجاهل المستشرقون ارتباط ظهور النحو بالقرآن الكريم كأحد العلوم التي نشأت من القرآن الكريم و لضرورة إسلامية خالصة ولأسباب وظروف داخلية كما يتجاهل المستشرقون الآراء الواردة في المصادر العربية في تاريخ النحو التي تقرّ نشأته الداخلية وقد ظهر من بين المستشرقين من اعترف بأصالة النحو العربي،وأن صلته بالنحو اليوناني أو السرياني صلة متأخرة بعيدة عن فترة النشأة والتكوين، وهو جزء من تأثير علم على الثقافة الإسلامية حدث بعد عصر الترجمة من علوم اليونان و السريان في العهد العباسي.

ومن هؤلاء المستشرق الفرنسي تروبو O.Troupeau الذي رفض التأثير المبكر لأنه مبني على فروض تاريخية غير واقعية معتمد على تسلسل تاريخي مرفوض

بمرور النحو بمرحلة يونانية وسريانية فمرحلة عربية(14).

وأنّ التأثير اليوناني لا يتعدى استعارة بعض المصطلحات،ورمى القائلين بالتأثير اليوناني بالتعصب العام للثقافة اليونانية وردّ كل العلوم إليها وإنكار فضل الحضارات الأخرى خاصة الحضارات الشرقية القديمة والحضارة الإسلامية، وهو يرفض وقوع أي اتصال بين النّحاة العرب والسّريان قبل حركة الترجمة حيث لا يرد ذكر نحوى سرياني واحد في الأخبار التاريخية النحوية العربية كما أن المصادر العربية لا تشير إلى أي مؤثرات أجنبية فضلا عن الإشارات الواردة عن كراهية النحاة العرب المنطق اليوناني مثل تفرقة الزجّاج بين طرق النحاة وطرق المناطقة،واتهام الروماني النحوي بإدخال أفكار فلسفية النحو.

ولم يكتف تروبو بهذه الأدلّة التاريخية بل أكد على اختلاف طبيعة المصطلحات النحوية العربية والمصطلحات اليونانية وطور نظرية الأصل الفقهي لمصطلحات النحو العربي مشيرا إلى الاتصالات المستمرة بين النحاة والفقهاء ومعطيا أمثلة لنحّاة تتلمذوا على فقهاء،ونحاة متمكنين في الفقه والشريعة والحديث مثل عيسى بن عمر و نصير بن عاصم ويحي بن يعمر وحمادة بن سلمة و النّصير بن شميل الذي عمل قاضيا فجمع بين علمي النحو و الفقه(15).

وأكّد المستشرق تروبو على ضرورة دراسة الخلفية الثقافية للنحاة العرب للتعرف على مصادر نحوهم وقد أعطى تروبو مجموعة مصطلحات نحوية مأخوذة عن الفقه الإسلامي مثل:بدل ،عوض، كلام، حجة، أصل، حسن، قبيح. ويعني بأنها مصطلحات وظيفية أي لها وظيفة داخل الكلام مما يشير إلى تأثير فقهي(16).

4. غزو الفصحى بالمفردات الأجنبية الدّخيلة

يعاني العالم العربي اليوم من غزو جديد تعرضت له اللغة العربية إنه غزو متنها بالمفردات الكثيرة الدخيلة من اللغات الأجنبية الشرقية أو الغربية، مع إمكان ترجمة هذه المفردات بما يفهمه الناطق العربي من لغته.وقد نُفّذ هذا الغزو بقصد ترجمة الكتب والبحوث الأجنبية وخاصة مستوردو الأفكار التي يريدون لها أن تغزو المعاقل الإسلامية وتكسر أسوار الحصون الفكرية عند المسلمين، ولقد امتلأت الكتب الحديثة والمجلات والصحف والخطابات والمحاضرات في الأندية، والإذاعات

وقنوات وسائل الإعلام من مسموعة ومرئية بهذا السبيل الجارف المخيف المتدفق على متن اللغة العربية الفصحى من المفردات الدخيلة الشرقية والغربية.

ولسنا ندري ما حاجة لغتنا العربية إلى إدخال مثل كلمة "بيولوجي" في متنها مع إمكان ترجمتها بما يساوي معناها المراد وهو "علم الحياة" أو إدخاله كلمة "سيكولوجي" مع إمكان ترجمتها ما يساوي معناها وهو "علم النفس" أو كلمة "فيزيولوجي" وهو ما يساوي "علم وظائف الأعضاء" إلى جانب "راديو" وهو "مذياع" وتلفزيون وترجمتها "مرناة" وسينما وترجمتها "خيالة" وغيرها ونظير ذلك كلمات كثيرة مثل: جيولوجي، أيديولوجي، سيكولوجي، راديكالي، فولكلور، كوكتال... إلخ. هذا الحشد من المفردات الدخيلة التي بدأت تغزو متن اللغة العربية من غير حاجة إليها لإمكان ترجمتها بما يدل على معناها من اللغة العربية الفصيحة.

أما الأعلام الأجنبية كأسماء الأشخاص، وأسماء الأدوية، وأسماء البلدان، فهذه مندوحة من قبولها بألفاظها، ولا مجال للاعتراض عليها، لعدم إمكان ترجمتها إلى ألفاظ عربية، أو وضع مصطلحات عربية لها.

إن قبولنا بتحدي هده الكلمات الأجنبية في غزوها لغتنا العربية، استجداء لا يرضى به مسلم حريص على لغة الكتاب المجيد.

وقد كان من الواجب أن لا يرضى به عربي يرى أنه يناصر قوميته، فما بال جمهور كبير من مثقفين العرب يفتحون صدورهم لتقبل هذا الغزو الأجنبي للغتهم، ويتولونه بأنفسهم ثم يتنطعون بين العامية والخاصة بترديد هذه الألفاظ الدخيلة، التي يوهمون بها أنهم أصحاب معرفة واسعة بالعلوم الحديثة، لذلك فما على الجماهير إلا أن تستسلم لقيادتهم وتخضع لإرادتهم (17).

5. التشكيك في قدرة اللغة العربية في العصر الحديث

لم يتوقف المستشرقون في هجومهم على اللغة العربية عند الشبهات التي أثاروها حول أصالتها في التاريخ القديم والعصور العربية المختلفة،ولكنهم اتهموا العربية في العصر الحديث بأنها لغة عاجزة عن الوفاء بمتطلبات هذا العصر وغير قادرة عن على مواكبة التقدم العلمي والتكنلوجي،ووصل ببعضهم الأمر إلى اعتبار اللغة العربية لغة ميتة مثلها مثل اللغة اللاتينية بالنسبة للغات الأوروبية الحديثة،وبأتها

لغة دينية بمعنى أنها تستخدم في المجال الديني، ولم يعد لها استخدام في الحياة اليومية مثل السريانية والسنسكريتية وغيرها.

ووصف المستشرقون اللغة العربية بالجمود وبأنها لغة بدوية لا تصلح للتعبير عن المصطلح العلمي الحديث،وأنها السبب في التخلف العلمي للعرب في العصر الحالي كما أنها السبب في التخلف الحضاري لأنها غير قادرة على استيعاب ألفاظ الحضارة الحديثة.ويقابل هذا الذم في اللغة العربية الفصحى الثناء على اللغة العامية وعلى اللهجات العربية المختلفة،ووصفها جميعا بالمرونة والسهولة والقدرة عن التعبير عن المطالب الحديثة،ومدحوها كوسيلة تثقيف للجماهير العربية والتخلص من الأمية المنتشرة بسبب صعوبة الفصحى18.

بالإضافة إلى هذا كلها اتهم المستشرقون الخط العربي بالصعوبة وعدم الصلاحية لاستقبال رموز ومصطلحات العلم الحديث،واقترحوا علاجا لهذه المشكلة بضرورة التخلي عن الخط العربي والأخذ بالخط اللاتيني وترك الأبجدية العربية19.

وتتجاهل الدراسات الاستشراقية المعاصرة في أحكامها هذه على اللغة العربية التاريخ العلمي الطويل والمزدهر للغة العربية منذ ظهور الاسلام وحتى العصر الحديث.فتهمة الجمود لم تعرفها اللغة العربية فقد ظلت لغة التعبير العلمي في الحضارة الاسلامية باختلاف عصورها،ولم يتوقف استخدامها كلغة علمية،بل لقد حققت مكانة علمية لم تصل إليها لغة إنسانية أخرى في التاريخ القديم والوسيط إلى أن أصبحت لغة العلم الوحيدة خلال العصور الوسطى وهو الأمر الذي أجبر مستشرقي تلك الفترة على تعلمها من أجل اكتساب المعرفة العلمية التي استوعبتها ونقل هاته المعرفة إلى لغاتهم الأوروبية وهو وضع وصل إلى اللغة العربية بالعالمية20.

خاتمة

إن الدراسات الاستشراقية التي قام بها أولئك المستشرقين تجاه اللغة العربية الفصحى ما هي إلا دراسات مشوهة ومسمومة غرضها تفتيت وحدة المسلمين بتفتيت الفصحى،لذا جاءت معظم أبحاثهم بعيدة عن المنهج العلمي السليم،وإذا كان المستشرقون يعادون العربية من حيث هي دين ومن حيث هي معارضة لأسلوب

الاستعمار، فإنهم وجهوا إليها الحرب بأسلوب دقيق هو أسلوب البحث الذي يحاول أن يخضع اللغة العربية لما خضعت له اللغات المختلفة غاضين النظر عن الفارق العميق والواسع والبعيد الذي يحفظ اللغة العربية ولا يحفظ لغات العالم كله وهو القرآن الكريم.

الهوامش

01. فاطمة هدى نجا، نور الاسلام و أباطيل الاستشراق، دار الايمان، ط01، 1993م، ص208.
02. منذر معاليقي، الاستشراق في الميزان، المكتب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط01،1997م، ص42.
03. عبد المتعال محمد الجبري ،الاستشراق وجه الاستعمار الفكري ،القاهرة، ط01، 1995م، ص226.
04. فاطمة هدى نجا، نور الاسلام و أباطيل الاستشراق، ص213.
05. المرجع نفسه، ص 215.
06. المرجع نفسه، ص 217.
07. المرجع نفسه، ص221.
08. دراسة في اللهجة المصرية، عبد القادر المغربي، مجلة مجمع اللغة العربية، ج03، 1993م، ص301.
09. عللوه محمد،الغزو الفكري والرد على افتراءات المستشرقين، دار الأقصى، دمشق، ط01، 2002م، ص112 ،116.
10. الباتلي أحمد بن عبد الله، أهمية اللغة العربية و مناقشة دعوى صعوبة النحو، دار الوطن للنشر، ط01، د ت، ص 25.
11. الجرجاني عبد القادر، دلائل الاعجاز، مطبعة المنار، د ط، د ت، ص23.
12. محمد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، ط 1، 1999م، ص 114.
13. اسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، ص91.
14. محمد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الاسلامية، ص 114.
15. المرجع نفسه، ص116.
16 جيرار تروبو، نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سبويه، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع01، 1987م.
17. حسين عبد الرحمن حنبكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير، الاستشراق، الاستعمار، دراسة منهجية شاملة للغزو الفكري، دار القلم، دمشق، 2000م، ص386، 387.
18. عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م، ص268-269.
19. صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط06، 1976م، ص355، 359.
20. محمد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي على المجتمعات الاسلامية، ص120، 121.